بنية النص السردي الرّحلي: بنية المقدّمة، بنية السفر، بنية الخاتمة(رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله أنموذجا):

من الرحلات الجزائرية الحديثة: رحلتي إلى المغرب لأبي القاسم سعد الله الذي لم يكن مؤرخا لأدب الرّحلة والرحالة الجزائريين فحسب بل كان هو الآخر رحالة وأديب. قام بالعديد من الرّحلات. عثرنا على بعضها منشورا في كتابه تجارب في الأدب والرحلة الذي نشرته المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائرية سنة 1983م.

يقول سعد الله في مقدمة الكتاب:" يضم هذا الكتاب مجموعة من التجارب في الأدب والنقد والقصة والشعر وأراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي والوطن العربي على العموم كما يضم أخبار رحلتي إلى المغرب وإلى الجزيرة العربية، بالإضافة إلى رحلة أحد الأمراء الألمان إلى عنابة مترجمة عن الإنجليزية"[1]، ويحوى هذا الكتاب أيضا إضافة إلى ما سبق رحلة داخل الوطن أطلق عليها اسم زيارة لخنقة سيدي ناجي، قام بها في 8 فبراير 1980م.

* بناء الخطاب الرّحلي:

إنّ البحث عن الجذر اللغوي لكلمة البِنْيَة في المعاجم العربية لا يوصل إلى تعريف جامع محدد لها، ذلك أنّها لم ترق في الاستعمال اللغوي لدى النقاد العرب القدماء إلى المصطلح المتداول، ومع ذلك أشاروا إليها من خلال بعض المفاهيم. ففي لسان العرب مثلاً البِنْيَة والبُنْية: ما بَنَيْتُه، وهو البِنَى والبُنَى، والبِناءُ: المَبْنِيُّ والجمع أبنية، والبِنْيَةَ كأنّها الهيئة التي بُنِيَ عليها[2].

ويُعرّف ابن فارس البنية في معجم مقاييس اللغة:" بنى: الباء والنون والياء أصلٌ واحد، وهو بِناءُ الشّيء بِضَمِّ بعضِه إلى بعضٍ "[3].

إنّ البِنْيَة شيء يتعدى ظاهر الشيء إلى ماهيته، فالملامح الخارجية وحدها غير كافية للدّلالة على صحة الفطرة أو اعتلالها، بل لابُدّ من النفاذ إلى ما وراء هذه الملامح.

وقد ورد أصل الكلمة في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرّة:" أربع عشرة مرّة منها على صورة الفعل الماضي والأمر، وثلاث عشرة مرة على صورة الاسم مثل: بناء وبنيان"[4].

وتحدث النّحاة عن البناء، وذلك في سياق حديثهم عن الإعراب:" وجعلوا البناء يعنى الثبات ولزوم آخر كلمة حالة واحدة لفظا وتقديرا، فيما يعنى الإعراب تغير آخر كلمة بتغير العامل"[5]. فالبِنْيَة كلمة تعنى البناء أو المعمار أو الطريقة التي يشيّد بها مبنى ما.

أمّا في النقد الحديث فقد انتشر مفهوم البنية، وتمخّض عنه كما هائلاً من التعاريف، منها أنّ البِنْيَة هي:" البناء أو المعمار يتكون من عناصر مختلفة ترتبط فيما بينها بعلاقات وظيفية أو جمالية"[6]. تحفظ هذه العلاقات الوظيفية والجمالية للنصّ تماسكه، وتناسقه. إذا البنية نظام يفسّر ائتلاف العناصر المكوّنة للعمل الأدبي.

تصنف الرّحلة ضمن الكتابة الأدبية النثرية، والنثر لون من ألوان التعبير الأدبي يلتزم فيه الكاتب بالتعبير عن قضايا معينة دون التقيّد بالوزن والقافية.

يقوم هذا الفن الأدبي غالبا على أسس معينة تميّزه عن باقي الفنون النثرية الأخرى، وأهم عنصر ميّز أدب الرّحلات هو البِنْيَة. كل خطاب كيفما كان نوعه له شكل، وطريقة معينة في البناء:" والبناء له صلة وطيدة بزمنية الخطاب. إن خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرحالة في مكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع على نقطة البداية"[7].

أعطت هذه البِنْيَة للرّحلات شكلاً خاصاً ومغايراً، ولكنّها اختلفت من رحلة إلى أخرى حسب المضمون، والهدف الرئيس الذي قصده الرّحالة من وراء خروجه من وطنه. فتعددت أنواع الرّحلات، وتعددت تبعاً لذلك بِنْيَاتها، ولاشك في أنّ هذه البِنْيَات زادت من رونق الرّحلات، فأضفت عليها طابعاً خاصاً جعلت القرّاء يتهافتون على قراءتها، والاستمتاع بحكاياتها المتنوّعة، وقصصها الطريفة.

تصنف رحلة أبا القاسم سعد الله ضمن الرّحلات العلمية، حيث يتسم هذا النوع من الرّحلات ببِنية خاصة، فارتياد آفاق العلم، ولقاء العلماء والأدباء السمة الأولى والمميّزة له، وسنحاول إلقاء الضوء على رحلته لدراستها، وتتّبُع مراحل سيرها، والطريق الذي نهجه الرّحالة وسار على خطاه.

الهوامش:

[1] أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، تجارب في الأدب والرحلة، 1983، ص7

[2] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 14/ 94.

[3] مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، 1/ 302.

[4] بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني)، علي مراشدة، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2006، ص7.

[5] المرجع نفسه، ص7.

[6] نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عيّنة "، عليمة قادري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006، ص192.

[7] السّرد العربي مفاهيم وتجلّيات، سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص207.